حضور الشيخ الهواري في النصوص التاريخية الوهرانية

الثغر الجماني أنموذجا

أ.د. الحمدي أحمد

الجامعة الإفريقية أدرار

ملخص:

يعد الشيخ محمد الهواري أحد رموز وهران البارزين الذين تعرف بهم المدينة، من خلال علمه وصلاحه، وأيضا الأثر الذي تركه في نفوس العامة والخاصة. وهو أمر انعكس في الكتابات التاريخية التي اهتمت به أو بالمدينة، ولعل الثغر الجماني أحد هذه الكتابات التي تناولته بالتعريف والتنويه، في مناسبات متفرقة ومواضيع متعددة. وقد ارتبطت ظاهرة الصلاح بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التي طبعت مجتمع الغرب الإسلامي. فالعديد من المصلحين والأولياء اشتهروا وبرزوا كردة فعل على الممارسات الخاطئة للدين في المجتمع ورغبة في إصلاح العقيدة وتقويم الأخلاق. تتناول هذه الورقة جردا لأهم النصوص التي تناولت الشيخ الهواري، ومدى توظيف تلك الإشارات، ولا يتعلق الأمر هنا بدراسة تحليلية أو تحقيب تاريخي لمراحل تطور حياته.

تمهيد:

إن الكتاب الذي فضلت جعله محورا لهذه الدراسة، أحد أهم المدونات التاريخية التي اهتمت بتاريخ الجزائر في العهد العثماني عامة، وتاريخ وهران وما جاورها بوجه خاص. ومؤلفه من المؤرخين الذين تميزوا بالدقة في التصوير، والاهتمام بالتفاصيل الصغيرة التي تغفل عنها عادة كتب التاريخ العام والحوليات. فهذا التأليف يضم أيضا العديد من النصوص التي تخص الفترة الوسيطة، ومن جملتها بعض أخبار الشيخ محمد بن عمر الهواري، خاصة بداياته في الطلب، والإشارة إلى مواقفه، ونظرته من المجتمع، وأيضا مناقبه وبعض خصاله.

المؤلفات التي اهتمت بالموضوع والمدينة:

هناك العديد من المصادر التي أرخت لمدينة وهران، ولشيخها محمد الهواري، وأتت على ذكر الكثير من التفاصيل التي تتناول نهاية الفترة الوسيطة، وبداية العصر الحديث، ومن جملتها: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. وعبد القادر بن عبد الله المشرفي (1192 هـ)، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان بوهران من الأعراب كبني عامر. وأحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط. ومحمد بن سليمان الصائم التلمساني، كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين. والآغا بن عودة المازري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود. وعبد الرحمن الجامعي المغربي الفاسي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي. وابن زرفة أبو محمد المصطفى، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية. [1] ومجهول، تاريخ الباي محمد الأكحل. [2]وأبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.[3] ومسلم بن عبد القادر، تاريخ بايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر.[4]وأحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني،[5] وهذا الأخير هو النص التاريخي الذي اخترته مدارا للبحث، ومجالا للتناول.

ترجمة الشيخ الهواري:

والهواري هو محمد بن عمر أبو عبد الله، ولد عام 751هـ/ 1350م وتوفي سنة 843هـ/ 1439م. وهو فقيه، ومتصوف، كثير الكرامات،[6] شهيرا بالغرب الإسلامي، أخذ ببجاية عن عبد الرحمن الوغليسي، وأحمد بن إدريس، وبفاس تتلمذ على يد القباب، وأبي عمران موسى العبدوسي. ورحل للمشرق وحج ودخل القاهرة، وبها أخذ عن الحافظ العراقي، واستقر بوهران، وله من التآلف: التسهيل، والتبيان، وتبصرة السائل، والسهو والتنبيه.[7] ويقول عنه الراشدي: «هو قطب وهران الذي عليه مدارها، وبدرها الذي أخجل الأقمار المتزايد أبدارها. ومطأطئ الأعناق الرفيع مقدارها، والرؤوس العلية أقدارها، سيدي محمد بن عمر بن عثمان بن منيع بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس بن أمين الناس الغياري المغراوي والمشهور بالهواري... والهواري نسبة إلى هوارة أحد طوائف البربر...والمغراوي نسبة إلى مغراوة قبيلة من زناتة».[8] ولا يكتفي الراشدي بالنقل من ابن صعد بل

ينتقده، حيث يقول: ...فهم من البربر البتر لا من البرانس، وهوارة من البرانس. وبهذا يظهر لك أن في قول ابن صعد الهواري المغراوي تناقضا، لا يرتفع إلا بحمل إحدى النسبتين على الوطنية، والأخرى على الأصلية.[9]

ويعود في فصل آخر ليتحدث عنه وعن صفاته: فلنرجع إلى ذكر السيد محمد الهواري رضي الله عنه فنقول: إنه كان . رحمه الله . ممن باع نفسه من ربه بتقاه، وأفنى ذاته في محبته فرفعه ورقاه، واستسقى منه أمطار المواهب والمعارف فسقاه، جمع له بين العلم والعمل، وأكمل له بما خصه من ولايته القصد والأمل، وكان صواما، قواما، جوادا، كريما، محبا لآل البيت النبوي، رافعا لمقدارهم، محافظا على حدود الشريعة، زاهدا في الدنيا، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وآتاه الله الحكم صبيا، وهداه إلى طريق الولاية وكان به حفيا، وأول ما فتح الله به عليه أنه خرج من وطنه بعد حفظه القرآن فدخل بلد كلميتو فوجد بها شيخا من أولياء الله تعالى فزاره وسأل منه أن يدعو له الله تعالى فدعى له أن يجعله من أهل الطريقة، فقبل الله دعاءه، ثم فارقه فطاف البلاد شرقا وغربا يجول الصحاري البعيدة والفلوات المقفرة، وطعامه فيها الحشيش وأوراق الأشجار، وتخالطه فيها الوحوش والسباع ولا يخافها.

الكرامة الفكر والمدلول:

إن السلوك القائم على الإيمان بالكرامة، يفصح عن ذاته باللجوء إلى التصوير والاستعارات. فتجربة الصوفي الذي يعيشها قولا وعملا، حيث يبني تجربته في المطلق، وبالتالي فتعبيره عنها يكون أفضل إن جرى بالصورة والتشبيه، أو بالامتثال والقصص. فالكرامة معطى مثقل بالمعاني والدلالات، وهي تعبير رمزي عن تجربة نفسية، وصراع انفعالي، وما يهمنا في المناقب هو محاولة فهم البنى والتراكيب التي تقوم عليها الذهنية الصوفية، فهي انكفاء على الذات، وغوص في العالم الداخلي، وإغفال لعالم الواقع وتجاهل للحس والمجتمع.

وسأقوم خلال دراسة حياة الشيخ الهواري من النصوص الذي يسجلها ابن سحنون، على الوقوف على مناقبه ليس بقصد اثباتها وتأكيد وقوعها، ولكن بهدف الاستفادة منها كمعطى

مسجل ومدون. وتطبيق منهج معاصر يحول الكرامة إلى نص خادمة لعملية التركيب التاريخي، من خلال دراسة مدلول المناقب، والإشارات التي تعطيها. محاولا مقاربتها مع الوقائع الثابتة والمتزامنة مع الحدث، علما بأن بعض الكرامات رواها علماء وفقهاء مشهورين عن غيرهم من المشائخ، وهنا يمكن تطبيق منهج التجريح والتعديل على الرواة.

رموز بدايات الطريق:

يجب إعادة تركيب عناصر هذه البداية كما يصورها صاحب الثغر الجماني: كانت صفاته في المرحلة الأولى من التلقي والترقي: الصوم، القيام، الجود الكرم، محبة آل البيت...فأتي تبعا لذلك ﴿الحكم صبيا﴾.[10] ثم صار في طريق الولاية: وكان به ﴿حفيا﴾.[11] ثم فتح عليه وخرج من وطنه، ووجد شيخا وسأله الدعاء ليكون من أهل الطريق! وجاءت السياحة والسفر، الصحاري المقفرة، أكل الحشيش، وأوراق الأشجار، ثم يخالط الوحوش والسباع.

إن تحقيق الشيخ الهواري لهدفه بأن أصبح من أهل الطريق قيمة إيجابية، جاءت نتيجة تسلسل صفات وأعمال تنبئ عن تطلعات صاحبها، وتشير إلى الميدان الذي أختاره[12] نال فعلا ما رغب، رغم الضيق الذي عاناه: أكل الحشائش وأوراق الأشجار والتجوال في الصحاري البعيدة المقفرة، فهو لا يزال يفتش عن ذاته، لكنه سيزيد ارتقاء واطمئنانا بمخالطته للوحوش والسباع، ويتجاوز القلق والاضطراب، بانتقاله للحياة جديدة.

أوليات الطلب:

وكان مبدأ قراءته العلوم بمدينة بجاية، دخلها بعد بلوغه بسنة، فقرأ بها على أعيانها الجلة كالشيخ سيدي عبد الرحمن الوغليسي، والسيد أحمد بن إدريس، ثم أخذ فيها في حفظ المدونة البرادعية، فلما بلغ منها باب الصيد سافر إلى فاس، فكمل بها حفظ المدونة سنة ست وسبعين وسبعمائة، وهو ابن خمس وعشرين سنة.

وكان طلبة فاس يقرءون عليه القرآن، والعربية، والفقه، ويتحدثون أنهم ما رأوا أبرك من قراءته. ثم سافر إلى الحج وزيارة الروضة المشرفة، فكمل قصده بذلك، ثم سافر إلى بيت المقدس،

فكمل له فضل الصلاة في المساجد الثلاث. ثم رجع فأتى وهران فاستقر بها قراره، واطمأنت بها داره، فانتفع الخلق بها على[13] يديه، وهداهم إلى الله بأزمة[14] دعايته.

تحليل رموز وإشارات الطلب:

لبجاية رمزية خاصة هامة جدا في العلم والتصوف والسلوك والتدرج في مراتب الولاية، والأمر ذاته ينطبق على الوغليسي، الرمزية اللطيفة الأخرى في النص الذي ذكره ابن سحنون، هو بلوغه باب الصيد من المدونة، واقتران ذلك بالسفر إلى فاس مدينة إدريس، فالصيد يعطي الانطباع بالنجاح في المسار، والسفر هو تجدد أو انتقال إلى طور مختلف وأفضل، وأيضا فيه معنى التطهر من الخطيئة، والانبعاث،[15] وولادة خالصة من الأدران. وأفضل نموذج للمتصوفة في مسألة الصيد والسفر، قصة سيدنا موسى مع الرجل الصالح الخضر، وما فيها من حكم وعبر.

وبناء على ما تقدم، نستطيع أن تستخلص بأن كرامة الشيخ الهواري هذه رمز لتكوين شخصية جديدة واعية ومتمثلة للقيم الصوفية، حلت محل العناصر القديمة العادية، لقد تخلى صاحبها عن شخصيته الأولى واهتدى إلى التصوف.[16] فعبر عن تجربته باللجوء للسياحة والسفر، ذي الصلة بالتجديد والانطلاق، هكذا فالكرامة هنا تعبير عن تحول داخلي، وتكوين حياة روحية رفيعة، وتخل عن الحياة المألوفة والحسية، باختصار بلغت رموز هذه الكرامة المجال الأعلى في إرضاء الذات. وخاصة وأنها اقترنت في النص مع سفر الشيخ الهواري للحج، الذي يرمز للسمو والرفعة حيث كمل قصده، وسينال بركة الصلاة في بيت المقدس ليجمع فضل المساجد الثلاثة، ويستقر بوهران وهو مكتمل التجربة حيث بلغ مداها.

الشيخ الهواري والعلماء:

وكان يتكلم عليهم ويشير إلى كل الحاضرين بما في خاطره، ويجيبه عما في ضميره، حتى إن العلماء يعضل عليهم فهم النوازل، ويعجز عن حلها أكابرهم، فيحضرون مجلسه ومعهم أرباب الحوائج التي أنبهم عليهم أمرها، فيتكلم بكلام مشترك، يفهم منه كل حاضر حاجته من غير أن يسأل عن شيء، وأخباره في مثل ذلك كثيرة،[17] ذكر ابن صعد بعضها.

لا شك أن هذه المنقبة تعطي العديد من الإشارات، فإخباره بما في الخواطر، والإجابة عما في الضمائر، حيث يزاوج بين الضرورة والاضطرار، وهي عناصر تلبي للصوفي رغبته في التفوق، وتعطي الانطباع للأخر بالتشويق والإثارة من خلال تتبع الواقعة بأكملها سواء بالتصريح أو التلميح. وواضح جدا استحضار نماذج متعددة للمستوى الأعلى وهم الرسل والأنبياء. ولعل النموذج الأول هو سيدنا عيسى عليه السلام: (وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكمإن كنتم مؤمنين).[18] ومع العلماءفي مسائل النوازل التي عجز عن حلها أكابرهم ومعهم أصحاب الحوائج، وببراعته يعطي إجابة واحدة للجميع، يفهم منها كل واحد غايته ومراده. والتأثر هنا واضح بالنبي عليه الصلاة والسلام الذي أتي جوامع الكلم.

وفي هذه الكرامة . والتي سبقتها . نرى ذوبان الصوفي في الشخصية النموذج: (سيدنا موسى، سيدنا عيسى، سيدنا محمد، وبعض أصحاب المعجزات في القرآن الكريم)، تجعله يلغي من نفسه كل ما يفرقه عن حقيقة ذلك النموذج. فهو يدعي لذاته الأفعال الخارقة التي للنموذج، وهو ينفي الفروقات بينهما[19] في نظر العامة.

علاقته بالسلطة وشيوخ القبائل:

ومن مناقبه رضي الله عنه أنه بعث خديما له إلى أحد طغاة بني عامر يقال له عثمان، ليرد مالا لبعض أصحاب الشيخ أخذه ظلما، فلما وصله أفحش له في القول وأمر بتثقيفه، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل خلوته بعد أن غضب حتى اسود وجهه، فسمع يقول: مفرطخ مفرطخ، فاتفق أن ركب يومئذ عثمان يلعب في عرس كان في حيه، فرأى الحاضرون شيخا أبيض أخذه وضرب به الأرض، فأقبلوا إليه فوجدوه مفرطخا، قد دخل رأسه في جوفه! فأطلقت أمه خديم الشيخ، وقامت تندب ولدها.[20]

الاتجاه هنا واضح لرفض السلطة وتحدي الجور، وما يظهر هو وجود قوة قادرة أسمى من رموز السلط المختلفة (رجلا أبيضا)، والهدف هو توجيه السلطة . أو إلى حد ما . تحريرها بواسطة التصوف، بهذا فهي تجعل من هذا الخير جبهة أقوى إزاء الظلم وانتصارا عليه، أكثر مما تدعو

للمجابهة أو إلى فعل بناء. وهذا يقود الباحث إلى القول بأن هذا الانتصار على مظاهر الظلم الاجتماعي فردي، وذاتي. ثم هو مناهضة للتعسف لا تقوم على اعتماد الجماعة والوسائل المحتملة أو الواقعية. فالحلول في الكرامات من هذا الشكل تخيلية، بل قاصرة ومحصورة، اهتمت عموما بتحرير الإنسان من المجتمع لا بالمجتمع، لا بالانخراط الفعال بل بالفرار والانقفال والانطواء على الذات.

الشيخ الهواري يحرر الأسرى:

وذكر الصباغ أن امرأة أسر ولدها فأتت سيدي محمد تشكوه أسره، فقال لها: اذهبي واجعلي قصعة من الثريد واللحم وأتيني بها، ففعلت ذلك وأتت به إليه فأعطى القصعة لسلوقية كانت عنده ترضع أولادها فأكلتها! فلما فرغت قال لها: اذهبي لموضع كذا من عدوة النصارى وجيء بابن هذه المرأة! فذهبت في الحين وقطعت البحر بقدرة الله تعالى، فوجدت ابن المرأة قد اشترى فؤادا لمالكته، فخطفته من يده فصار يتبعها خوفا من النصرانية، إلى أن عرضت له ساقية فتخطاها، وعدى في أثرها إلى أن دخلت به على أمه في وهران.

استنجاد المسحوقين بالفقراء والمتصوفة يفتح متنفسا لأرباب الطرق للظهور والبروز، فهم القادرون على ترويض الحيوانات لخدمتهم (يأمر السلوقية فتطيع) بل تتصرف بأذكى صورة لاسترجاع الأسير طبعا ببركة الولي! وتظهر الصوفي قادرا على إخضاعه، والتأثير فيه.[21] وتحقيق أمنية المرأة في الأخير... الشيخ الهواري هنا يفعل ما لم يقدر على فعله الأمير أو قائد الجيش. والمرأة قدمت مقابل التحرير الطاعة للولي في كل ما أمر، لأنه يمثل سلطة موازية يجب أن يقدم لها الولاء. والكرامة هنا مأمن وهمي، ودفاع لفظي ضد الأعداء والخصوم، وأمنية بالحماية المفقودة. كما ألحت على أن الصدقة واجب ديني أساسي، كما رأينا، لتأمين حد ما من العيش المادي لفئة . قد تبدو مهملة . وهي فئة الحيوان، وهم جند من جنود الصوفية والأولياء. ولا يجب أن نغفل رمزية الكلب عند الأولياء، فهو يشير إلى الطمأنينة والسكينة والطاعة كما في قصة أصحاب الكهف.

الصراع المرابطي الموحدي حول وهران:

ويحاول الراشدي ان يبرز دور المدينة وأهميتها بالنسبة للدويلات الإسلامية التي قامت في الغرب الإسلامي. وفي خضم الصراع بين عبد المومن وتاشفين، لا يفوت الفرصة في إدراج اسم الشيخ الهواري في المتن رغم إنه عاش في فترة متأخرة عن الدولتين، حيث يستصحب أقوال ابن صعد عندما تطرق لعلماء وهران في تلك الفترة، حيث يقول الراشدي: «قال ابن صعد المتكلم في مناقب وليها الشهير، وإمامها الذي نادى بفضله اسمع جهير، الملحوظ خادمه بعناية الباري سيدي محمد الهواري...».[22]

وعندما تناول العلماء في موضع آخر ذكر بأنهم كثر، ولا يمكن الإحاطة في تقييد أخبارهم، وترتيب أعمالهم، ولو: « لم يكن فيهم إلا السيد محمد الهواري، وتلميذه إبراهيم التازي، لكان فيهما أكبر الكفاية، إذ كل منهما كان في جوها آية. أما السيد محمد رحمه الله ورضي عنه فعسى أن نذكره بمحل غير هذا أليق به».[23]

حرمة زاويته:

وكان رضي الله عنه قاطعا لأوداج الظلمة، ما تعرض له أحد إلا عاجله الله تعالى بالهلاك.[24] قال ابن صعد: وبهذا جرت عادة الله فيمن تعرض لزاويته. ولذلك يقول الراشدي: «فقد شاهدنا كثيرا من ولاة وهران وعمالها الذين سبقت لهم الشقاوة، فحملتهم النفوس المارة على التهاون بحرم الزاوية، واخراج من استجار بها منها ينتقم الله منهم سريعا، ويظهر غضب الله عليه في أهله وماله وولده ونفسه، حتى لا يستقيم له حال في الوقت وفي الاستقبال».[25]

غضب الشيخ الهواري:

وعند الغضب يمكن أن تتحول دعوة الشيخ الهواري ضد سكان وهران، وهذا ما حصل بالفعل لما قتل أهل المدينة ولده، واستخفافهم بمحارم الله:

اين من وهران به سادا[26] لولا أن باعهم بيع أرخيص

لما أن مسوه بالعطبا عطبو منه الأهل والجورا

وهو يشير هنا إلى الشيخ الهواري، وبأنه كان سببا في تدمير مدينة وهران.[27] بعدما خانه أهلها وأساءوا له ولأهله وجيرانه وتعديهم[28] عليه. فدعى عليهم، وسلم المدينة للطغيان! يقول الراشدي: «وحكى أن سيدي على الأصغر المدفون قبالة سيدي الداودي بن نصر كان حاضرا لهذا البيع...فيؤخذ من هذا جواز الدعاء على الظالم ولو بالأسر».[29] وقد آثر أهل وهران في هذه الفترة العوائد والأعراف الضالة،[30] وتحاكموا للعامة[31] بدل التزام حدود الشريعة.

ومن الذين احتفوا به كثيرا تلميذه إبراهيم التارزي،[32] الذي يقول فيه:

وقد عدم الناس الشيوخ بقطرنا وآخرهم شيخي وغاية اجلالي
وقد قال لي لم يبق شيخ بغربنا[33] وذا منذ أعوام خلون وأحوال
يشير إلى أهل الكمال كمثله عليه من الله الرضى ما تلى تال[34]

ومسألة دعاء الأولياء[35] على البلاد المغضوب عليها لجرم، فكرة سادت وعمت في عهد الأتراك وقبلهم، حيث يقول أحمد بن عبد الرحمن، عن سبب دخول النصارى لوهران: «أن الشيخ محمد الهواري دعا عليها بذلك لبغي أهلها على ولده، حيث قتلوه فأسلمها للنصارى لأنه سلطان مصرها، ومتولي أمرها».[36] مع العلم أنهم لم يدخلوها فور دعوته على البلاد، بل دخلوها بعد وفاته باثنين وسبعين عاما، لأنه توفي سنة 843هـ، وهم دخلوها سنة 914هـ.[37]

ويبدو أن بلوغ منحى التوتر بين أصحاب القوة، والمتنفذين في المدينة وقطب المتصوفة، حتى وصل لاغتيال ابن الشيخ الهواري، يشكل مرحلة الذروة ويعكس الخطورة التي أصبح يشكلها التصوف على مصالح هؤلاء، فلجأوا إلى سلاح الاغتيال للحد من تأثير أصحاب الفكر الكرامي على العامة والرعية.

لكن السؤال الذي يطرح بإلحاح هل يعقل بأن الشيخ محمد الهواري يدعوا على مدينته؟ والتخريج الذي توصلت له هو أنه مات غاضبا من عدم تحقيق ما كان يصبوا إليه من تتبع سكان

وهران بالجملة، لكن لا يمكن أن نتصور أن يقوم بذلك برد فعل يصل إلى مستوى الدعاء على المدينة. لكن أتباعه بعد وفاته هم من وضع الدعاء، وجعلوا صياغة له ونسبوها للشيخ الهواري، وهو مثابة الأداة للتحكم في رقاب العصاة من الناس.

المبشرات بالفتح:

ومنها الرؤيا التي وقعت للعديد من الخيرين والشيوخ، الذين رأوا الباي في المنام وكأنه يفتح المدينة، ومن جملتها ما يتعلق بالشيخ الهواري، حيث رأى بعض أهل الجزائر: «كأن الأمير يتشاجر مع بعض أولياء وهران، ولعله سيدي محمد الهواري في شأن فرس أنثى، فلم يزل به الأمير حتى أفتكها منه، فقال له الناس: أنك أخذت فرس الولي وهو لا يصبر عنها، فاقتلها حتى لا يطمع فيها، فقتلها!»[38]

عودة المدينة بعد زوال العوارض:

والرعية ندمت على صنيعها وانتهاكاتها، وعادت إلى الجادة متمسكة بالسنة وبكتاب الله تعالى، وهو ما أهلها لاسترجاع المدينة من البغاة وأعوانهم. فقد حكى الحاج أحمد الصغير قال: قدمت الجزائر فقصدت سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وبت فيه عند ضريحه ثلاثا، وأنا مهتم بأمر وهران، فرأيته في النوم فقال لي: تفتح إن شاء الله تعالى، وأنت تبلغ لأهلك فتجدها قد فتحت، أو تحضر لفتحها. فقلت: يا سيدي، وسيدي محمد الهواري باعها.[39] فقال: هو باعها، والناس اشتروها بعده من الله عز وجل.[40] وهو يلمح لأوضاع المدينة في عهد العثمانيين، حين شحذوا[41] همم الناس . من الخاصة[42] والعامة . لتحريرها من يد الأسبان.

رمزية الرجوع:

لا شك أن أهم وأبرز معطى في هذه الكرامة التأثير بعد طول الغياب والموت، وأيضا عبد الرحمان الثعالبي بما يمثله من ثقل عند المتصوفة، فهو الذي يبشر بفتح المدينة، ويزيل الهموم والوساوس والقلق من رأس الحاج أحمد الصغير. وهكذا تذوب المعطيات الحسية عندما يتعلق الأمر بتأثير الولي، ذلك أن مقداره لا ينتهي بانتهاء عمره، بل يصبح رمزا ومزارا، بعد وفاته، وتصبح

الكوارث دليلا على امتداداته في الذاكرة والضمير. بل يزداد إشعاعا من خلال الأحلام المتجددة عند القرناء في الزمان وهو ما يحافظ على استمراريته. والرسالة التي تقدمها هذه الكرامة هي أن الأولياء أحاطوا المدينة بعنايتهم، حيث غضب منها ولي[43] وتشاءم لأحوالها، ودعى عليها أتباع هذا الولي، وحمل همومها ولي[44] حيث نغص وضعها حاله ومعاشه، وبشر بتحريرها ولي[45]، وهذا هو دأب الأولياء، حيث حملوا هموم المجتمع.

فقيه تواتي يشارك في تحرير وهران الأول:

ويتعلق الأمر بمحمد بلعالم الزجلوي، وهو من العلماء البارزين، وكان في زيارة للمدينة وصادف وجوده بها الحصار والتحرير،[46] فشارك إخوانه الفقهاء والطلبة في فريضة الجهاد ودفع أعداء الدين عن المدينة، حيث قال: «أما الجهاد ففي حضوره لمحاصرة جيش جند المسلمين من الترك والطلبة مدينة وهران مدة عامين، ففتحها الله عليهم غي يوم الجمعة من عام 1118 هـ. قال: والطلبة الذين حضروها أكثر من خمسمائة، وأمدهم أهل الجزائر بعشرة آلاف تركي، ويهاب الكفار الطلبة أكثر من الترك لإيثارهم الموت على الحياة رغبة في الشهادة، ومادامو في المرامات لا يتزلزل صف النصارى في خروجهم أحيانا إلى حول قصرهم، حتى إذا طال ذلك بالمسلمين وصاحوا عليهم بالسكاكين فجردوا إليهم سيوفهم فينهزمون سريعا. قال: وتصافا الفريقان يوما، فتقدم رجلا من المسلمين يسميه سيد الحاج ابن الحاج محمد مبارزا وكان فارسا معظما، فخرج إليه رجلا من النصارى فتبارزوا، فضربه المسلم برصاصة في فخذه فحمله أهله وقال المسلم: أردت ترصيصه في صدره فجاءت في فخذه، وكان هذا الفارس حيا إلى وراء هذه الغزوة. وممن توفي فيها العالم الأستاذ الصالح سيد الحاج الموفق، فهو من شجعان المسلمين، يسميه النصارى سيدي محمد السبع ورفع من المعركة حيا فلذلك صلي عليه، وانكسرت عليه ثلاثة أنعشة من كثرة الزحام عليه هكذا حدثنيه مرة، ثم شكا في كونها ثلاثا، قال: ودفن بأرض، ثم نقل منها بعد ثلاث بتلمسان لكونها أرضا فيها شبهة، فأقبلت الناس عليه وعلى أولاده من بعد موته أكثر من حياته، وكان يصفه بالزهد في الدنيا من كثرة العبادة، والزيارة، وإقراء مختصر خليل والجمع بالسبع ويقول هو أستاذ تلمسان

وصالحها».[47] وهكذا يظهر بأن مدينة وهران لأهميتها هبت الجنود والفقهاء والطلبة من أماكن بعيدة لنجدتها وتحريرها.

وفاة الشيخ محمد الهواري:

ويحرص الراشدي على تقييد وفاته بدقة، فهو أمر جليل لأنه دليل وهران، والولي الذي تعرف به المدينة، فوفاته: يوم السبت الثاني من ربيع الثاني سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة [843هـ]، وعمره اثنان وسبعون عاما،[48] وقبره بمدينة وهران حسبما يفهم من قول محمد بن عبد المومن في قصيدته التي يحرض فيها حسن سلطان الجزائر في زمانه على أخذها:

نادتك وهران فلب نداها وأنزل بها لا تقصدن سواها

واحلل بهاتيك الأباطح والربى واستصرخن دفينها الأواها

ويقول الرحالة عبد الرحمن الجامعي الفاسي، في شرحه لمنظومة الحلفاوي التلمساني في تاريخ وهران وفتحها الأول[49]: مراده بدفينها السيد محمد الهواري.

التولية بالكفاءة والتولية بالوراثة:

ولما مات الشيخ ورث سره تلميذه ومريده السيد إبراهيم التازي، حيث: «كان له اعتناء بكلام شيخه».[50] وورث مخلفه بالنسب ولده سيدي عبد الرحمان بوحامد . رحمه الله تعالى . وله عقب متصل منتشر، فالواجب احترام الجميع فإنه غيور على أولاده.

ولا شك أن الجدير بالوارثة الفعلية هو الشيخ إبراهيم التازي، على اعتبار الاصطفاء الذي شمله به شيخه، حيث منعه من الرجوع إلى الحرمين لما أقبل عليه في وهران قادما من تلمسان، وكان ينوي المجاورة. وأدرك الشيخ الهواري أنه: وارث سره، وكان يحتفي به غاية التحفي ويخص[51] أصحابه على إتباعه وتوقيره وأفاده أسرارا جمة إلى أن مات الشيخ فورثه وصار هو الرأس بعده.[52] ولقب بخليفة: «سيدي محمد الهواري في وقته».[53]

الخاتمة:

يعد الشيخ محمد الهواري من رموز وهران البارزين، وأحد علمائها الكبار المؤثرين، والذين خلفوا الكثير من التلاميذ والطلبة ممن ازدهرت المدينة في عهدهم، ولعل أبرزهم هو إبراهيم التازي. وهو أمر أكده ابن سحنون في كتابه الذي قمت بتحليل مادته المتعلقة بالمحتفى به، فهذا الكتاب وإن كان مجاله هو التأريخ لفتح بايات وهران وذكر مآثرهم في الدفاع عنها، غير أن صاحبها استطرد في الوقوف على مسائل تتعلق بالعلماء، والأولياء وكراماتهم، والدفاع عنهم، وإتباع طريقهم. فروح الشيخ الهواري تغمر الكتاب في أغلب فصوله، فلا تكاد تقرأ جملة أو نصا، إلا وتجد التلميح له، والتصريح بأعماله، والتنويه ببعض صفاته. فقد شكل التيار الصوفي قوة اجتماعية هامة، فرضت على النافذين اتخاذ حسابات دقيقة في اختيار أساليب التعامل معها، سواء بالتصادم أو عند المداراة لكسب الود.

الهوامش:

1- المكتبة الوطنية الجزائر: 3320.

2- المكتبة الوطنية الفرنسية على الميكروفيلم: 5022.

3- بتحقيق محمد بوركبة قسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران.

4- تقديم وتحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط 1974.

5 - تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث قسنطينة، مارس 1973، (477 ص)، بمقدمة مولود قاسم.

6- ابن مخلوف، شجرة النور، ص 254.

7 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض بيروت، ط ثانية 1980، ص 337. ونيل الابتهاج، ص: 303. البستان، ص 228. تعريف الخلف، ج 1، ص 170.

8- الراشدي، الثغر الجماني، ص433.

9- المصدر نفسه، ص ص 433- 434.

10- سورة مريم، آية 12.

11- سورة مريم، آية 47.

12 - علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الأندلس بيروت، ط الثانية 1984، ص 181.

13 - الثغر الجماني، ص 443.

14- هكذا وردت في الأصل.

15- علي زيعور، المرجع السابق، ص 181.

16- المرجع نفسه، ص 182.

17- الثغر الجماني، ص 444.

18 - سورة آل عمران، آية 49.

19- عند الحاج عمر تال الفوتي، الولي في جماعته كالنبي في أمته. هذا ما يؤكده في كتابه رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم. وتم توظيف هذه الفكرة في صراعه مع الفرنسيين وخصومه في ماسينا وسيقو...استغلال الكرامة زمن الضعف.

20- الثغر الجماني، ص 444.

21- علي زيعور، المرجع السابق، ص 180.

22 - الثغر الجماني، ص 187.

23- المصدر نفسه، ص 188.

24- المصدر نفسه، ص ص 445-444.

25 - المصدر نفسه، ص 445.

26 - محمد بن سليمان الصائم التلمساني، كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين، ص 555.

27 - المصدر نفسه، ص 555.

28 - الثغر الجماني، ص 191.

29- المصدر نفسه، ص 446.

30 - كعبة الطائفين، ص 555.

31 - يقول الشيخ محمد التواتي ناصحا لأهل وهران، من قصيدة طويلة:

لبدتكم من قبل أن تردت	أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة
وأي قلوب عندها مستقرت	وقبل مجيء المنشآت ببحرها
فما غائب مثل المقيم ببلدة	ولا تكلوها غيركم ولئن يكن
وقد نال منه السم شاك بعلة	وما ينفع الترياق إن بعد المدا

ينظر: كعبة الطائفين، ص 558.

32 - ترجم له ابن صعد في النجم الثاقب. وأحمد بابا في النيل، والكفاية. والمقري، أزهار الرياض، 309/2. وابن مريم، البستان، 63/58. وشجرة النور، 263. وتعريف الخلف، 07/2. ورحلة القلصادي، 111. وله تآليف، منها نظم مسمى بالمرادية شرحه الحرشاوي الندرومي، حيث يقول: وكنت جعلت شرحا على النظم المسمى بالمرادية للشيخ إبراهيم التازي تلميذ الهواري دفين وهران.

33- في كعبة الطائفين: بقربنا.

34 - الثغر الجماني، ص 445.

35 - يورد المؤلف هنا الكثير من الكرامات لأحمد بن يوسف في هذا الباب نقلا عن الصباغ. ينظر: الثغر، ص ص 446 – 447.

36- أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 1991، ص 61.

37 - ورجعت للمسلمين عام 1206 هـ: ومجموع ما بقيت بأيديهم ثلاثمائة سنة غير سبعة، والسبعة بالنسبة إلى الثلاثمائة من التافه الذي لا يعتد بنقصه، ولا ينتقص ذلك بالخمس والعشرين سنة التي بقيت فيها بيد أبي الشلاغم، إذ الأمر لم يتم فيها للمسلمين فكأنها لم تخرج من أيدي الكفرة فيها. الثغر الجماني، ص 448.

38- الثغر الجماني، ص 207.

39- كعبة الطائفين، ص556.

40- الثغر الجماني، ص 446.

41- لأنه يذكر قصة أخرى للولي يوسف الشريف حكاها بمسجد أبي مدين، وصرح بأن فتح المدينة لن يكون بطبول ولا فساد. ينظر: ص 556. وفي الثغر الجماني: لا طبول ولا عساكر، وإنما يفتحها فرسان قلائل بكلمة التوحيد. ص 446.

42 – من الفقهاء محمد بن علي أبو طالب المازوني وكان عمره يتجاوز التسعين عاما، ومحمد بن عبد الله الجلالي شيخ ابن سحنون الراشدي وكثير من الشيوخ والطلبة، ص ص 228- 234.

43- محمد الهواري.

44 – أحمد الصغير.

45- عبد الرحمان الثعالبي.

46 – وهو يشير إلى تحرير المدينة الأول في عهد الباي مصطفى بوشلاغم عام 1708 م.

47 – محمد بلعالم الزجلوي، النوازل، دراسة وتحقيق محمد جرادي، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية.

48- الثغر الجماني، ص 448.

49 – على يد بكداش باشا عام 1119 هـ.

50 – أبو الحسن القلصادي، الرحلة، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، مصنع الكتاب الشركة التونسية، ط الثانية 1985، ص 111.

51 – هكذا وردت في الأصل ولعلها: ويحض.

52- الثغر الجماني، ص 189.

53- القلصادي، المصدر السابق، ص 111.